



تلميذي القبيلي..!

سماح أحمد سالم بادبيان- اليمن



في عينيه العسليتين بريق خاص، تنهّدي بين أطراف أجفانه كلمات عجزت يومها عن قراءتها! كان يومي الأول في مدرسة القرية قادمة من العاصمة، وكان هذا تلميذي (سالم).

ثم رأيته مرة أخرى بين طرقات سوق القرية يتسلل كقط صغير ناكس الرأس، منكوش الشعر، حاشرا جسده النحيل كعود قصب يابس طلته الشمس بطبقة نحاسية صفراء بين عربات باعة الطعام والبطاطس، ومفارش الرمان المنتشرة في أوج موسم زراعته في القرية، بيده اليسرى كيس كبير يجره خلفه حيثما انحسرا.

غرقت في تأمله متناسيا غرضي من زيارة السوق، لمحت يده اليمنى تتحرك سريعا ملتقطا أشياء من الأرض يدسها مباشرة في كيسه، يتحرك في كل الاتجاهات كصياد يطارد فريسة هاربة، أبقى إلا أن يعود بها.

تواريت عن أنظاره خشية أن يخجل عندما يرى معلمه الجديد يكتشف أسرار، وهو القبيلي صاحب الكبرياء..!

مررت بإصبعي على الشاشة المضيئة أمامي، أقلب آخر الأخبار على صفحتي في الفيس بوك، وأقرأ ما كتبته أنامل أصدقائي، ومواقع الأخبار التي أتابعها أحيانا..

كل الصور حاملة تختال في ألوانها الزاهية، تمر أمامي كأحلام وردية في ليلة هادئة.. إلا صورة واحدة، انتصبت أمامي بقوة، وجثمت على قلبي وكأنها يد غول كبير شقت عن صدري واعتصرت قلبي بقبضتها القوية، قبل أن تتبش بعنف أحداثا قبرتها في ذاكرتي منذ فترة طويلة!!

أغمضت عيني لأستيقظ من هذا الكابوس الذي اقتحم فجأة سلسلة الأحلام الوردية في الليلة الهادئة.. وفتحتهما. كان أمامي ليس كما رأيته أول مرة واقفا بكبرياء بقميصه الأبيض المصفر من كثرة ما غُسل ولُبس خلال السنوات الماضية، وسرواله البني المتهترئ (صندله) القديم المقطوع حزام إصبعه..!

سألته حينها عن حذائه؟ فأجابني بثقة:

- أنا قبيلي يا أستاذ، والقبيلي ما يلبس الأحذية!

مؤخرتها على الأرض وأمسك بطرفها الأعلى، فبدأ بجانبها كقزم.. وقد تطاولت بقامتها المتعجرفة على قامته!!

كنت قبلها ألقى درسا في المدرسة، عندما قال لي تلميذ نبيه لاحظ سؤالالي اليومي في الأسبوع الماضي عن تغيب سالم، فأدرك اهتمامي الخاص به: - سالم يا أستاذ جندوه في الحرب! بدوت كالأبله وأنا أردد باستغراب كلمة

لكنه قال لي عندما رأيته أراقبه في مرة أخرى في السوق:

- أنا أعمل تاجر خردوات يا أستاذ (أبو اللغة العربية).

كان يجمع علب البلاستيك الفارغة، والعلب المعدنية، وأسلاك الكهرباء، والقطع النحاسية والحديدية... وكل ما يمكن أن يباع ليكتسب منه (لقمة شريفة) على حد وصفه!

لم يخفت بريق عينيه لحظة واحدة، حتى وهو يتهجأ كلمات عبارة (أنا طفل سعيد).. ولا يستطيع قراءتها..!

راودني حينها إحساس بأن الكلمات صعبة عليه لانفصالها عن واقع.. بيد أنه لم يكن يحسن القراءة والكتابة كما تبين لي بعد ذلك..

ثابرت لأجعله يحب اللغة، كوني (أبوها) كما كان يطلق عليّ تلاميذي في المدرسة، فلم أفلح إلا في جعله يتهجأ أسرع مما كان!

أراه يسحب كيسه الفارغ في طرقات السوق بعد المدرسة.. وأراه يحمله على كتفيه ممثلاً عند الغروب.. تخط مؤخرة الكيس المثقلة خطأ متعرجا على الأرض تبعاً لمشيته المتعثرة، متطاولة بحجمها وطولها على قامته النحيلة الصغيرة..

أراه الآن على شاشتي مختلفاً!! ممدداً فوق كيس يشبه إلى حد بعيد كيس تجارته.. وخطان أحمران يمران على وجهه: الأول من طرف شفته إلى ذقنه، والآخر من ثقب صغير في جبينه ممتداً إلى عنقه.. وبجانبه تمددت بندقيته الكبيرة! أردت أن أرى بريق عينيه.. لكنهما كانتا مغمضتين!.

عندما رأيته آخر مرة كانت عيناه مطفأتين بلا بريق.. واقفاً بقميصه الأبيض المصفر وسرواله البني المهترئ، ممسكا ببندقية كبيرة، وقد وضع



(جندوه!١٩) وكأنها كلمة جديدة أضيفت إلى قواميس اللغة حديثاً فلم أفقه معناها.. فأضاف التلميذ النبيه متحذلقاً بأنه يعرف معنى كلمة لا يعرفها (أبو اللغة العربية) نفسه:

- يعني أعطوه سلاحاً، وأخذوه يقاتل في الجنوب..

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أخوض في غمار طرقات



أطوف الأسواق بكيسي الكبير أعمل كما قال تلميذي القبيلي يوماً: (تاجر خردوات!).

عندما أقف أمامه أرى نفسي متوارية خلف جسده، كما يتوارى البدر خلف الغيوم في الأيام الماطرة، والفرق بيني وبينه أنني أخذت نصيبي من التعليم بقوة، فقد رأيته الخلاص والباب الذي سأفتحه لأخرج من عالم الشقاء إلى الرفاهية، هذه الكلمات كانت في الأصل الورث الذي أورثنيه والدي، بينما أورثه والده (القبيلة)!

سألته عن السلاح الذي يحمله فقال:

- أنا سأقاتل!

- ومن ستقاتل؟

رأيت في عينيه المنطفئتين ذهولاً ممزوجاً بالحيرة، وكأنما فجأه السؤال، أو كأنما هو شيء بديهي لا يسأل عنه!

وأجاني بتردد بعد فترة من التفكير بدت واضحة على معالم عينيه التي بدأت أجيد قراءة لغتها السرية: - الأعداء.. أقاتل أعداء الدين والوطن.

- ومن هم؟

لم يحر جواباً.. أدركت أنه لم يلحن جيداً الكلمات التي تلقن عادة للمجندين عن مغزى الحرب.. وماهية الأعداء؟ وليس ذنبه أنه لم يستفسر أكثر، فليس إلا طفلاً لم يكمل بعد عامه الثاني عشرًا..

فحوّلت سؤاله إلى أمه التي انتحت جانباً تنقل نظراتها بيننا في صمت:

- لماذا ترسلينه إلى الموت؟

- لا أرسله للموت، وإنما أرسله ليدافع عنا!

- يدافع عنا ضد من؟

ترددت قليلاً قبل أن تقول:

- الأعداء.. أعداء الدين والوطن!

الأعداء..!

القرية الموحلة بعد أن غزتها الأمطار القوية المصاحبة للبروق والرعود منذ أسبوع، فاستقبلتها الأرض بصدر رحب، كأمن تتحمل بصبر صراخ طفلها العنيد، ثم تمتص غضبه ودموعه بضمة حانية إلى أحضانها!!

تركت صفي خلفي.. وعلى السبورة عنوان الدرس الذي لم أشرحه: (بالعلم نبني الأوطان)!! وأسرع راكضاً إلى منزله الذي أحفظ الدرب السالك إليه تماماً خلف أسوار مزارع سيد القرية. كان أمام باب منزله وبجانبه أمه العجوز وإخوانه الخمسة، يختال في مشيته أمامهم جارا حمله الحديدي الثقيل بعزم..

وقفت أمامه لاهثاً، فتوقف وأسند بندقيته على الأرض، وسألني باستغراب:

- أستاذ أبو اللغة العربية.. لم أتيت؟!

اجتاحني سؤاله كفيضان يعبث بالأغصان النامية، فيقتلعها، ويجرفها في طريقه، وقد كان غصنا نامياً أنعمه بصبر، فاجتاحني فيضان الحرب الأهلية لتجرفه من طريقي إلى طريقها!

(لم أتيت؟) أيهمني أمر طالب مهمل قال لي يوماً بفخر (أنا قبيلي)؟ أم تراها نظرات عينيه التي تحمل أسراراً لم تقرأها عيناى بعد.. سأقتني للاهتمام به دون غيره؟ أم هو الشقاء الذي جمعنا في ظله، وحرمننا الإحساس بالطفولة معا.. إذ كنت يتيماً مثله؟!

مات أبي، وتركتني أعنتي بأسرة كبيرة من ثلاث أخوات صغيرات وأم ثكلى وجدة مريضة.. سلكت دروب الشقاء والعمل صغيراً لأطعم الأفواه الجائعة المنتظرة في المنزل، تارة أعمل حمالاً في المرفأ، وتارة أغرس أقدامي في الأرض الطينية الخصبة، أبذر وأبئل مع مزارعي القرى المجاورة لمدينتنا، وأحياناً



أهذه هي الكلمة الوحيدة التي لُقنت لهم؟.. أسوّه له:
 - أنا قبيليّ يا أستاذ.. والقبيليّ ما يخاف الحرب!..
 لم تفلح محاولاتي في ثنيه عن الذهاب، فقد كان منتشياً بإحساس الرجولة المبكرة، غير مدرك لما ينتظره، وخلف تلك العبارة المقيتة: (أنا قبيليّ يا أستاذ).. طوى صفحة طفولته!..
 أما أمه فتوارت خلف باب دارها، ونم أرها أو أسمع لها صوتاً حتى عندما جاءت السيارة، وانتزعته من بين أنظاري إليها، ولم تستطع عبارة: (أنا قبيليّ يا أستاذ) أن تخفي البريق الذي لمع لوهلة في عينيه عندما أدارها للمرة الأخيرة ناحية منزله وإخوته - قبل أن تبتعد السيارة - وانحدر برفق على وجنته في صورة دمة حملها كل ما تبقى له من براءة!!
 وكان هذا آخر عهدي به إلى أن انتصبت صورته أمامي الآن في الشاشة من أحد مواقع الأخبار.. بخطين أحمرين يخترقان وجهه، وسلاحه الكبير ممدد بجانبه بعجز، واقتحم الصورة بعشوائية في طرفها الأيمن على حين غفلة من المصور (صندل) قديم بحزام مقطوع!! ■

أهذه هي الكلمة الوحيدة التي لُقنت لهم؟..
 أيعقل أن تقتنع أم بإرسال طفلها لساحة الحرب من أجل هذه الكلمة الفضفاضة التي هي كبقة عمياء في كون مضيء؟
 ولم تلبث حيرتي طويلاً إذ جاءني الجواب في كلماتها التالية كسيل من الطلقات المتتابعة ربما كانت أول وقود الحرب:
 - لقد دفعوا لنا ديتة، وأعطوه (ربطة فلوس) ليعيش بها.
 كانت تتكلم بعبارات متتابعة من دون أن تتيح لي فرصة للرد.. وكأنما أرادت أن تخفي نبضات قلبها الهلوع على فلذة كبدها خلف كلماتها الواثقة.. فتبضت كلماتها بالهلوع رغماً عنها، وانبتثت الحروف والكلمات متقطعة مع أنفاسها وهي تقول:
 - السيد حكم أن يخرج من كل بيت رجل وهو رجلنا وأكبر إخوته، فسرى الحكم عليه.
 -.....
 - يقاتل الأعداء ويعود لنا بالخير إن شاء الله.
 كل كلمة قلقتها بعد ذلك ذهبت أدراج الرياح، وتلاشت بعد اصطدامها بكلماته المكررة لكل سؤال